دراسات في الآداب الأجنبية

فرانز كافكا والإنسان المسخ

بقلم خيري الضامن

ولد في براغ سنة ١٨٨٣ ، وكان ابوه تاجرا تشيكيا غنيا ، وبعد مدة قصيرة قضاها في دراسة الآداب والطب ، تحول الى دراسة الحقوق لاعتقاده انها مهنةتوفرله وقتا كافيا لحياته الخاصة ومتابعة كتابته ، وقد حصل على شهادة الدكتوراه في القانون من جامعة براغ، وشغل وظيفة في شركة للتأمين ، وبعد ذلك احتل منصبا في مكتب العمل شبه الحكومي ، وفي سنواته الاخيرة اخذ يشعر بثقل عبء حصوله على معاشه عن طريق شغل رتيب فيمكتب ، فرفض ذلك واستقر في احدى ضواحي برلين ليكرس وقته للكتابة . في ١٩١٤ عقد خطبة، ولكنه فسخها شاعرا بعدم مقدرته علىمقابلة الزواج، وحاولمرة اخرى ان يتزوج لكنه اكتشف انه مصاب بالسل ، فقصد احد المصحات، ولكنحبه الذي لم يشبع، وعلاقته مع ابيه، الذي كان انانيا غير مهتم بطموح ابنه الادبي، واستقامته الذهنية العنيدة،وحساسيته الشديدة، كل ذلك اودى بصحته، بالاضافة الى ان سني الجوع التي شملت برلين بعد ١٩١٨ قد اضافتاللمسات النهائية لحياته، فمات في ١٩٢٤ .

ومع ان كافكا تشيكي الا انه كتب جميع مؤلفاته بالالمانية ، وقد نشرت سبعة منها في حياته ـ ومن بينها « المسخ » The Metomorphoris اما « القضية » The Trial فقد ظهرت بعد موته في ١٩٢٥، وقد ظهرت « القصر » The Carlle في ١٩٢٦ و « أميركا » Great Wall of China في ١٩٢٧ ، و « سد الصين » في ١٩٣١

ترجمة عن غلاف كتاب « القضية »

« ما ان أفاق غريغور سامسا، ذات صباح ، من أحلامه المزعجة ، حتى وجد نفسه وقد تحول في فراشه الىحشرة ضخمة ! » تلك هي الحكاية التي يعرضها كافكا في«المسخ»، وحكاية اخرى يعرضها لنا الكاتب في قصته « القضية » تكاد تكون شبيهة بحكاية المسخ بوجه او بآخر .. فبينما يبدأ كافكا « المسخ » بالحكاية السابقة يبدأ « القضية » بالحكاية التالية :

« Someone murt have been telling lies about Joseph K., for without having done anything wrong he was arrested one fine morning.»

« لا بد ان يكون أحد ما قد لفق الاكاذيب ضد جوزيفك، فقد أوقف ذات صباح جميل مع أنه لم يقترف اية جريمة!»

وينهي كافكا «القضية » بموت جوزيف ك ، لا كما يموت انسان ، بل كما يموت كلب (١) وينهي «المسخ» بموت غريغور سامسا ، لا كما يموت انسان ، بل كما تموت خنفسة (٢) .

ولا يكاد فرانز كافكا يتخطى ، في ادبه ، حدود ذلك المجال الذي تنتشر فيهالعتمة وتسيطر عليهالكآبةوالقلق.. انما هو يجعل الانسان يقابل مصيره ووضعه وجها لوجه، الانسان المهجور الذي يتخبط في ظلمات الارض ، هو هذا بحيث لا يجعل له مهربا ولا ملاذا لفرار .

وكثيرون (٣) هم الذين لا يعتبرون بطل كافكا هو هذا الكائن الذي دفع ليسلك سبلا يغطيها الضباب ولا تتكشف عليها لمحات من الشمس ، هذا الكائن المقذوف بلا رحمة في هذا الكون المتسع السادر ، كما يقول الوجوديون . وأغلب ظننا ان هؤلاء الوجوديين هم من ضمن اولئك الكثيرين الذين يعتبرون بطل كافكا الذي يجول مخذولا كسيرا بسيفه الصديء المثلم ، هو هذا الانسان المأساوي الذي يعيش ، فعلا ، قلق هذا العالم ومشاكله وقضاياه ، وامكانا ، خلال قصص اولئك الوجوديين والكتاب الذين يصدرون عن نقطة تشاؤم وسواد .

ليس لنا على ذلك الفهم لبطل كافكا اعتراض جدي ، لانه ليس من السهل انكار ذلك الفهم بحد ذاته ، ذلك لان انسان كافكا هو انسان العصر الحديث الذي يعيش مأساته ويتخبط في دياجير قلقه ، ولكننا نعتقد أن اهمية ابطال كافكا تتضح بتوجيه الضوء اليهم بصورة افرادية ، حيث يتعرى جوزيف ك كجوزيف ك ، وحيث ينكشف غريغور سامسا عن غريغور سامسا ، ولا شيء ابعد من ذلك ، بل لا شيء اكثر من ذلك . وعلى هذا النمط سنوجه ضوءا على

(١) The Trial, by Franz Kafka P. 251. ed. Penguin

(٢) ص ٩٩ من « المسخ » ترجمة منير البعلبكي .

(٣) راجع بحث شاكر مصطفى « مأساة الانسان في الحضارة الحديثة » مجلة « الاداب » العدد السابع ـ السنة الثانية ، تموز١٩٥٤

غريغور سامسا ـ المسخ كي يتضح لنا غريغور سامسا ـ المسخ ، فاذا انكشف هذا عن الانسان ـ الحشرة ، فانا نعتبر ذلك نتيجة ثانوية فيها كثير من الغناء ،وسنعود الى جوزيف ك ، في دراسة مستقلة عن« القضية » .

* * *

غريغور سامسا تاجر جوال يشتغل لحساب شركة معينة ، مسخه فرانز كافكا ـ ومن تراه يمسخ ذلك التاجر المسكين غير كافكا ؟! ـ بلا مقدمات ، وبلا اسباب كما يبدو، لاننا لا نجد في القصة كلها دلالة تشير الى ذلك سوى بضع كلمات تتجه بها ام غريغور مخاطبة كبير الموظفين الذي جاء يستطلع سبب تأخر غريغور عن عمله ، بعد ساعات قلائل من انمساخه : « ان عدم خروجه من الغرفة مساء يكاد يسخطني ، لقد كان هناك طوال الايام الثمانية الماضية ، وهو لم يغادر البيت في أيما ليلة من ليالي تلك الايام » (ص١٩)، ومع ذلك فان هذه الكلمات لا تكشف عن سبب انمساخ ذلك المسكين الذي كان من عادته ان ينام وأبواب غرفته مرتجة من الداخل . وفي صباح الانمساخ بقي محجوزا بين جدران تلك الغرفة ، حيث « أصبح الناس يعتقدون ، على اية حال ، ان علة قد نزلت به وانهم لعلى استعداد لمساعدته». ولقد همس كبير الموظفين في اذن امه ان الصوت الذي يطلقه غريغور ، من داخل الغرفة ، لم يكن صوتا بشريا ، ولكن غريغور يعي ما يقول ويدرك ما يريد ان يعبر عنه ، الا انه عرف ان الناس خارج غرفته لا يمكن ان يدركوا معنى الاصوات التي يخرجها كلاما غير واضح مطلقا بالنسبة لهم.. انه يفهمهم ولكنهم لا يفهمونه ، وهذه بداية المأساة .. وحين سمع امه تطلب من ابنتها ان تسرع في دعوة الطبيب والحداد الذي يمكنه ان يفتح باب الغرفة «استشعر انه مسوق من جديد الى الدائرة الانسانية » . ولما كان جسمه ، جسم الحشرة ، كبيرا وأطرافه المتعددة صغيرة لا تقوى على حمله ، فقد جرب مرارا الزحف الى الباب ومحاولة فتحه . الا ان محاولاته كانت تفشل غالبا ، ومرة « دفع ، في بطء ، الكرسي نحو الباب ، ثم تركه ، وتعلق بالباب متخذا منه سنادا ـ كانت الحوافر التي في أطراف ارجله الصغيرة دبقة بعض الشيء ـ واتكأ عليه لحظة بعد جهوده تلك . ثم انهمك في ادارة المفتاح ،بفمه، في القفل . لقد بدا ، لنكد طالعه ، ان فمه أمسى خلواً من الاسنان ـ بأي شيء يتشبث بالمفتاح اذن ـ ولكن فكيه كانا من ناحية ثانية قويين جدا من غير شك . وبمساعدة هذين الفكين حاول ان يحرك المفتاح ، غير مبال بأنه كان ينزل بهما اذى في مكان ما ، من غير ريب ، اذ انبثق من فمه سائل اسمر ، وجرى على المفتاح وراح يقطر فوق ارض الحجرة » (ص٢٧) .

وحدثت تغييرات عديدة على غريغور أخذت تبتعد به تدريجيا عن المجال البشري ، ويتعمق كافكا في اكتناه الصفات الدقيقة التي تملكها الحشرة فيضفيها على ذلك الانسان المسكين ، ففي الدقائق الاولى للمسخ يتكشف لنا اللحاف عن النصف الاعلى من جسم غريغور ، فنرى ما يهولنا ويفزعنا من التغييرات الطارئة على ذلك الجسد ، ويدخل كافكا ، خلال ذلك ، في تدقيقات مهمة ، معتبرا المسخ ولادة جديدة لحشرة ، مع انها كبيرة جدا ، انها لا تزال تمتلك الصفات الاساسية للحشرة الطفلة التي لم تعتد بعد استعمال اعضائها ، فتراها تحركها حركات هوجاء القصد منها التمرين على الاستعمال ، كما يحرك الطفل حديث الولادة اعضاءه حركة مبعثها ، قد يكون ،الغريزة ، وغايتها ، كما هو واضح ، التمرين على استعمال تلك الاعضاء فيما يأتي من زمن . وقد أمضى غريغور ساعات طوالا ، يحاول ، بلا جدوى ، النزول من السرير ، قبل ان يجرب فتح الباب ، وخلال تلك الساعات ما كان له هم سوى تمرين أطرافه المتعددة على استعمال وظيفتها ، ولكنه صمم اخيرا النزول من السرير « فشرع يهز كامل جسده ، دفعة واحدة، في اتساق نظامي ، رجاة ان يمكنه ذلك من ذبذبته الى خارج الفراش . انه اذا ما استطاع ان يميل جسده نائيا به على هذا النحو فعندئذ يكون في مصيره ان يصون رأسه من الاذى برفعه على زاوية حادة حين يسقط . لقد بدا ظهره صلبا ، وكان من الراجح ان لا يصاب بأذى من سقطة على البساط ، وكان اكثر ما يقلقه تلك الفرقعة الصاخبة التي لن يكون في ميسوره ان يجتنب احداثها ، والتي سوف توقع ـ في اغلب الظن قلقا ، ان لم نقل ذعرا ، خلف الابواب جميعا ، ومع ذلك فقد كان عليه ان يقوم بتلك المخاطرة » (ص ١٥)

لقد تحول غريغور بشكله الى حشرة، هذا واضح ،الا انه بعد مرور ايام ، أخذ يفقد المزايا الشعورية والحسية للانسان ، حيث تبرز الصفات الدقيقة للحشرة « فالحق ان الاشياء البعيدة بعض الشيء ليس غير كانت قد أخذت تبدو مظلمة اكثر فأكثر في عينيه،يوما بعد يوم،والمستشفى القائم عبر الشارع ، والذي كان دأبه ان يلعنه لمثوله الدائم امام عينيه ، امسى الان بعيدا عن مدى بصره ، ولولا انه كان يعرف انه يقطن في شارع هادىء ولكنه شارع من شوارع المدن على اية حال ، لخيل اليه ان نافذته تطل على صحراء مجدبة تتمازج فيها السماء الرمادية والارض الرمادية على نحو يمتنع معه تمييز احداهما من الاخرى» (ص ٥٤)

وحين افرغت غرفة غريغور من الاثاث المهم ، كان قد بدأ يمل الزحف على ارض الغرفة الضيقة ، « وهكذا كون ـ لمجرد التروض ليس غير ـ عادة الزحف،بصورة متصالبة، على الجدران والسقف . ولقد استمتع ، بخاصة ، بالتدلي من السقف ، فقد كان ذلك افضل بكثير من الاستلقاء على الارض ، انه يمكن المرء من التنفس في حرية اكثر ، وان في ميسور الجسم ان يتذبذب ويهتز برشاقة » (ص٥٨)

ومع ذلك فقد بدأ غريغور لا ينزعج عندما أخذ اهله يلقون ، الى غرفته ، بكل زائد عن حاجتهم من أثاث لا غناء فيه ، بل ومن اناء الزبالة وغيره ، ولكنه كان يشعر بضرورة

تواريه عن العيان « لان مقادير الغبار المنطرحة الكثيفة في غرفته والمرتفعة الى الهواء عند أضأل حركة ، كانت قد غطته هو ايضا بالغبار . وانسحب معه زغب وشعر وفتات طعام ، فقد كانت هذه كلها عالقة بظهره وجانبيه . وكانت لامبالاته بكل شي الى درجة جعلته لا يفكر في الانقلاب على ظهره وتنظيف نفسه بالسجادة » (ص ٨٨) .

* * *

مسخ غريغور سامسا ورأيت ما رأيت من مظاهر مسخه ، فما هو شعور الآخرين تجاهه ؟ما هو الموقف الذي سيقابلونه به ، وعلى أي اعتبار سيعتبرونه ؟ انه انسان ، اليس كذلك ، فهل سيبقى في نظرهم انسانا ؟ تلك هي المشكلة التي تعالجها القصة بعمق كبير ..

لقد تفهم الوجوديون ادب فرانز كافكا تفهما جديا ، وقد اعجبوا بشخصياته الانسانية الغريبة ، وكان أن بنوا اسسا فكرية ومفاهيم ذات اهمية كبرى معتمدين على جذور كانت قد نبتت بين سطور كتب كافكا .. فقد ترى مشكلة وجود الاخرين ، التي اعتبرها الوجوديون من مفاهيمهم الفلسفية الاصيلة ، ذات جذور في ادب كافكا ، بل في قصة «المسخ» هذه .

مسخ غريغور سامسا ، وبقي شهورا طويلة يحتفظ بروحه الانساني ، ولكن الناس الذين تربطهم به علاقة ما ـ وحتى أنا القارىء ـ بدأوا من اللحظة الاولى يغيرون رأيهم فيه ، وانحرفت فكرتهم عن اعتباره انسانا انحرافا فظيعا ، لا يحس به شخص غيره هو الذي احتفظ لحد ما بميزته كانسان لم يتبدل منه الا المظاهر .. ان الناس اعتبروه ، من اللحظة الاولى ، نوعا منحطا من انواع الحشرة ،اعتبروه شيئا !..

لا مهرب لنا ، كما يقول الوجوديون ، لاجل ان نحرس فرديتنا ، من اعتبار الاخرين ، اشياء ، مجرد اشياء ، تدخل في مجال ادراكنا للموجودات .. واذا مر شخص ، عابر ، ولم يلتفت لوجودي ، كان طعمة لنظري ، ألتهمه بسهولة ، واعتبره شيئا ، مجرد شيء .. وان سقط اعتباري هذا ، كان وجود ذلك الشخص مهددا لوجودي ، انني سوف اسقط في الوهدة ، في الجحيم ، انه سيعتبرني أنا بالذات، شيئا ، مجرد شيء !..

وهكذا ، سقط غريغور سامسا في الجحيم عندما اعتبره الناس حشرة ، شيئا .. عندما أرغموه على الخروج بعيدا عن المجال البشري ، عندما عزلوه ، هجروه ، أقسى ما يكون العزل ، وأمر ما يكون الهجر .. انه لا يزال يشعر بامتلاكه لنفس الانسان وميزته ، وهو يدرك ، ويا لهول ما يدرك ، انهم قد حكموا عليه بالنفي الى عالم الحيوان !

فعندما أطل غريغور الحشرة من باب غرفته ، بعد ان فتحه ، لاول مرة ، صعق أهله وكبير الموظفين لهول المفاجأة الغريبة ، لقد كان من الممكن ان يتصوروا أي شيء حول اختفاء غريغور ، ولكنهم لم يصدقوا انه كان عليهم ان يتصوروا تحوله الى حشرة .. ان ذلك لا يمكن ان يصدق بل لا يمكن ان يتصور .. ولكن ذلك واقع ، ولم يستطع كبير الموظفين الا أن يطلق « أوه » صارخة ، لقد بدت أشبه بهبة ريح ، وأمسى بوسعنا ان نرى الرجل واقفا اقرب ما يكون الى الباب ، واضعا احدى يديه على فمه الفاغر ، ومتراجعا الى الوراء ، في بطء ، وكأنه كان مقودا بضغط متواصل غير منظور .اما أم غريغور التي كان شعرها غير مسرح على الرغم من وجود كبير الموظفين هناك ، وكان منتصبا في مختلف الاتجاهات ، فقد ضربت اول الامر كفا بكف ، ونظرت الى أبيه ، ثم خطت خطوتين ، وخرت على الارض وسط اهداب ثوبها المنتشرة ، وقد حجب وجهها فوق صدرها حجبا كاملا . وضم ابوه اصابع كفه ، وقد طفت على وجهه سيماء ضارية ، وكأنما كان يريد ان يلكمه بقبضته رادا اياه الى غرفته ، ثم اجال بصره في تردد حول غرفة الجلوس ، وحجب عينيه بيديه ، وبكى حتى خفق صدره الضخم » (ص ٢٩)

وأخذ اهل غريغور يعنون به ، عناية ما ، وذلك لا يخلو من ان يكون مجرد رجع للمفاجأة الصاعقة « فقد أخذ ابوه وامه يكثران من الانتظار خارج الباب ، فيما ترتب اخته غرفته ، حتى اذا خرجت ، تعين عليها ان تخبرهما ، على وجه الدقة ، كيف كانت الحال في الغرفة ، وما الذي اكله غريغور ، وكيف كانت مسالكه خلال تلك الفترة ، وما اذا كان شيء من التحسن قد طرأ على وضعه » (ص٥٦ـ٥٧)

ولقد بدا لأخت غريغور ان الاثاث الذي يملأ غرفته لا غناء له فيه ، بل قد يكون عائقا له عن الزحف في داخل الغرفة ، فطالبت من امها مساعدتها في اخراج ذلك الاثاث واخلاء الغرفة ، الا ان الام ما كانت ترغب في ذلك ، فقد كانت تجيب ابنتها « او لا يبدو وكأننا نريه ، باخراج الاثاث من الغرفة ، اننا قد قطعنا الرجاء من شفائه ،واننا نتركه وشأنه من غير اكتراث ؟ انا اعتقد انه من الافضل ترك غرفته كما كانت تماما ، حتى اذا رجع الينا من جديد وجد كل شيء على حاله ، وكان أيسر عليه أن ينسى ما حدث خلال تلك الفترة (ص ٦٠)

صحيح ان أهل غريغور اخذوا يبدون بعض الاهتمام به، ولكنهم متفقون ، نهائيا ، على اعتباره حشرة ، وليس بشرا .. اذ ان اهتمامهم ذاك لم يكن صادرا عن الخير والانسانية اكثر مما كان صادرا عن بعض من انانية ، فقد كانوا يسألون ما اذا كان قد طرأ شيء من التحسن على وضعه ، انهم يرغبون الان بأن يعود الى المجال الانساني بعد ان حكموا عليه بالدخول الى حظيرة الحيوانية ، وما كان اهتمامهم به الا على امل العودة والشفاء ، لا على اعتبار الانسانية الحقة والعطف الذي تحييه ذكريات الماضي ، « من الافضل ان ندع غرفته كما كانت تماما ، حتى اذا رجع الينا من جديد وجد كل شيء على حاله ».

لقد حكموا عليه من النظرة الاولى ، فلاحظ ما سيقابلونه به من سلوك ، خلال حياته التي دامت قليلا من شهور .. فقد بدأوا يقابلون المأساة بهدوء ولامبالاة ، كأن لم يكن

ابنهم انسانا ، يوما ما ، بل كما لو كان قد خلق حشرة منذ البداية .. فقد كان غريغور في اغلب الليالي « يسمع اهله في وضوح ينسلون على رؤوس اصابعهم ، ان احدا ما كان من المحتمل ان يزوره ، من الان حتى مطلع الفجر ، كان هذا امرا ثابتا » (ص ٤٢) واذا اتفق لاخته ان مرت بغرفته « دخلت على رؤوس اصابعها وكأنها كانت تزور مريضا بل وكأنها كانت تزور رجلا اجنبيا » (ص ٤٣) لقد بدأ غريغور يفقد كل امل في الاعتبارات البشرية ، لقد بدأ يضيع ، « فمن ذا الذي كان يستطيع ان يجد متسعا من الوقت ، في هذه الاسرة المرهقة المجهدة ، للتفكير فيه تفكيرا يزيد ذرة واحدة على المقدار الضروري » (ص ٧٧) ولقد بدأ يحس ذلك الضياع ، يعيشه بمفاصله واحساساته ، بل ، لنقل ، بلحمه ودمه ، وبدأ يثور على ذلك الضياع فقد « كان مزاجه لا يساعده على التفكير في الاسرة ، ولكنه كان يمتلىء غيظا للطريقة التي اهملوه بها » (ص ٧٩)

وخلال الفترات الاولى من انمساخه ، في فترة العناية الجيدة به ، كانت تقدم له « تشكيلة كاملة من الطعام ، منشورة كلها فوق صحيفة عتيقة ، كانت بينها خضر بائتة نصف متهرئة ، وعظام من عشاء الليلة البارحة مغطاة بمرق متبل ابيض كان قد تخثر ، وبعض الزبيب واللوز ، وقطعة من جبن كان خليقا بغريغور ان يعلن قبل يومين انها غير صالحة للاكل ، وكعكة يابسة .. والى جانب هذا كله وضع اناء فيه ماء ، كان يبدو انه قد خصص له من دون افراد الاسرة » (ص ٤٤)

وقد اخذت اخته بعد تلك الوجبات « تجمع بالمكنسة لا بقايا ما قد اكل فحسب ، بل حتى الاشياء التي لم يمسسها ايضا ، وكأن هذه أمست الان غير ذات غناء لاحد ، وتسارع الى اقحامها كلها في دلو ، ما تلبث ان تغطيه بحجاب خشبي وتنطلق به » (ص ٤٦)

وتمادت اخته باهمال طعامه « ولم تعد تشغل نفسها بالتفكير في ما قد يرضيه بخاصة ، ولكنها كانت تدفع الى غرفته بقدمها ، وفي عجل ، ايما طعام تجده في كل صباح وكل ظهيرة قبل ان تمضي الى وظيفتها ، وفي المساء تخرج ذلك الطعام من الغرفة بضربة واحدة من المكنسة بصرف النظر عما اذا كان قد ذاقه مجرد ذوق ام كان قد تركه سليما لم يمس » (ص ٧٩) . بل لقد بدأت الامور تسوء كثيرا مع غريغور فقد « صارت جميع الاشياء غير الضرورية في الوقت الحاضر تقذف ـ الى غرفته ـ في عنف بيد الخادمة المتجولة التي كانت تقوم بكل شيء في عجلة بالغة .. صفيحة الرماد ، وصفيحة قاذورات المطبخ سواء بسواء » (ص ٨٤) . وقد اعتادت تلك الخادمة ، اخيرا ، ان تنادي غريغور ، متلطفة ، بقولها « تعال يا خنفساء الروث العجوز ! »

وقربت اللحظة الحاسمة اخيرا ، فقد بدا الاهل جميعا لا يطيقون فكرة بقاء هذه الحشرة البشعة تقبع في احدى غرف منزلهم .. « يجب ان نحاول التخلص منه ، لقد حاولنا ان نعنى به وأن نصبر عليه أقصى ما يستطيع الانسان ان يصبر » (ص ٩٣) « انا على الاقل لا استطيع اختماله اكثر مما فعلت » (ص ٩٤) . هذا ما تصرح به اخت غريغور لابيها ، حين تستمر عارضة المشكلة : « يجب ان يذهب ، هذا هو الحل الوحيد يا أبي . يجب ان نحاول التخلص من الفكرة القائلة ان هذا هو غريغور ، ان مجرد اعتقادنا بذلك طوال هذه المدة الطويلة هو امل شقائنا كله ولكن كيف يمكن ان يكون هذا المخلوق هو غريغور ؟ لو كان هذا هو غريغور اذن لادرك منذ زمن بعيد ان الكائنات البشرية لا تستطيع العيش مع مثل هذا المخلوق ، ولمضى لسبيله طوعا واختيارا . وعندئذ لن يكون لنا بعد أخ ما ، ولكنا سوف نكون قادرين على مواصلة الحياة وابقاء ذكراه حية مكرمة ، أما في هذه الحال ، فان هذا المخلوق يورثنا اعظم الالم ، ويطرد مستأجرينا ، راغبا من غير شك في ان تكون الشقة كلها له ، وفي ان ننام كلنا في البالوعة » (ص ٩٥)

ويبدو ان غريغور نفسه اخذ يشعر ، في ذلك الجو المحموم ، انه دخيل غير مرغوب فيه ، وعليه ان يترك هذا العالم في الحال . و « كانت الفكرة القائلة بأن عليه ان يتوارى فكرة تعلق بها اكثر من تعلق اخته نفسها ، لو كان ذلك ممكنا » (ص ٩٨) .

وحين مات غريغور و « انطلقت من منخريه آخر زفرة من انفاسه الواهنة » أسدل الستار نهائيا على المأساة ، وتناسى اهله الماضي وانتزعوه من اذهانهم ، وبدأوا يشغلون بتفاهات العيش .

حتى أنا ـ القارىء ـ عندما أشغل بقراءة الصفحات الاخيرة من القصة ، اكون قد نسيت نهائيا ذلك المسكين ، وبدأت اتعرف على ما في رؤوس عائلته من مشاريع حياتية جديدة . ويستطيع فرانز كافكا ان يدخلني في صلب الجريمة ، هجر ذلك الكائن البشري ونسيانه .. كما يستطيع ان يبرز قضايا متعددة ، ذات علاقة بمشكلة فرد يرتبط بارتباطات ما مع الاخرين .. حتى اذا انفكت بعض عرى تلك الارتباطات فقد ذلك الفرد كيانه وشخصيته الانسانية .. وبدأ الاخرون ينفضون عنه .. رجال العمل الذين تربطهم به روابط المهنة .. المعارف .. الاصدقاء .. الاهل الذين تربطهم به روابط الوجود .. كل اولئك ينفصلون عنه ، فيا للمأساة !

* * *

ما كان في رأينا اعتبار بطل فرانز كافكا يمثل الانسان النوع ، وما كنا نظن ان لفرانز كافكا نوعا من الفلسفة في هذا الخصوص ، وانما كل ما نراه ، من خلال هذه الدراسة التحليلية ، ان بطل فرانز كافكا هو الانسان الفرد ، ومأساته تنطوي على علاقاته مع الاخرين ، حيث تتضح خطوطها من خلال وجهات نظرهم ومن خلال مواقفهم تجاه ذلك الانسان .

البصرة

خيري الضامن